الروابط الحجاجية في الخطاب القرآني الموجه إلى أهل الكتاب

جمال موسى

جامعة الجزائر2

Résumé :

Oswald Ducrot a établi les principes de l'argumentation dans la langue, plus particulièrement dans son livre «l'Argumentation dans la Langue ». Il a abordé dans ses travaux les liens pragmatiques existant et a montré le manque de l'intérêt descriptif à tenter de déterminer le contenu de ces liens conceptuels. Il a démontré que du moment qu'il y a un contenu, chaque locuteur sait dans quelle situation et quand il doit utiliser la conjonction « et » au lieu de « ou », ou « mais »…, comme il sait utiliser et comprendre les différents discours qui contiennent ces conjonctions, car ce contenu est en accord avec un ensemble d'instructions, c'est-à-dire qu'il correspond au contenu sous son aspect pratique.

ملخص

أسس أوزوالد ديكرو في أعماله لما يسمى بالحجاج اللغوي خاصة في كتابه "الحجاج في اللغة"، وتطرق ضمن أعماله إلى الروابط التداولية أو الخطابية في علم الدلالة وفي التداولية أساسا. وبيّن انعدام الفائدة وصفيا مع السعي إلى تحديد ما لهذه الروابط من محتوى مفهومي. وبيّن أنه ما دام لها محتوى، فكل متكلم يعرف متى يمكنه أو يتعيّن عليه أن يستعمل "و" عوضا عن "أو"، أو "لكن"...الخ، كما يعرف كيف يؤوّل على نحو مختلف الخطابات التي تحتوي على هذه الروابط، فإن هذا المحتوى يوافق مجموعة من التعليمات، أي أنه يوافق محتوى تطبيقيا.

تمهيد:

تحمل اللغة في ذاتها مقوّمات حجاجية، وهذه المقومات تتمثل في ألفاظ وكلمات لا تؤدّي دورها الحجاجي إلا في سياق استعمالها.

"وقد أدت أعمال أوزوالد ديكرو إلى شيوع الروابط التداولية أو الخطابية في علم الدلالة وفي التداولية أساسا. فقد بيّن انعدام الفائدة وصفيا من السعي إلى تحديد ما لهذه الروابط من محتوى مفهومي. وبيّن أنه ما دام لها محتوى (فكل متكلم يعرف متى يمكنه أو يتعيّن عليه

أن يستعمل "و" عوضا عن "أو"، أو "لكن"...الخ، كما يعرف كيف يؤوّل على نحو مختلف الخطابات التي تحتوي على هذه الروابط)، فإن هذا المحتوى يوافق مجموعة من التعليمات (أو الإجراءات)، أي أنه يوافق محتوى إجرائيا". [1]

إن هذه الأدوات والروابط هي التي أدت كلا من ديكرو وأنسكومبر إلى رفض نموذج شارل موريس، ودفاعهما عن فرضية التداولية المدمجة. حيث ترتبط القيمة لقول ما بالنتيجة التي يؤدي إليها، ولا ترتبط بالمعلومات التي يتضمنها.

رفض ديكرو الوصف القديم الذي يصف الأداة "لأن" (Puisque) أنها تشير إلى "ب" يستلزم "أ"، كما يصف الأداة "لكن" (Mais) بأنها تشير إلى التعارض القائم بين القضايا الرابطة بينها، واقترح وصفا جديدا لهذين الرابطين: يسلم المخاطب بـ"ب"، و بالإحالة على استلزام "ب" لـ"أ"، فإن عليه أن يقبل "أ" وبالنسبة لـ"لكن" تميل إلى أن تستنتج من "أ" نتيجة ما، لا يبغي القيام بذلك، لأن "ب"، وهي صحيحة مثل "أ"، تقترح النتيجة المضادة. كما أنه لم يحصر دور "حتى" (Même) في عبارة "حتى زيد جاء" في إضافة معلومة أخرى لعبارة "زيد جاء"، بل لهذا الرابط دور يتمثل في إضافة حجة جديدة أقوى من الحجة التي قبله، والحجتان تخدمان نتيجة واحدة، غير أنهما متفاوتتان من حيث القوّة الحجاجية. [2]

الروابط الحجاجية (Les connnecteurs):وتربط بين قولين أو حجتين، وتسند لكل قول دورا محدّدا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة. ومن أمثلة الروابط الحجاجية: لاسيما، بما أن، لكن، حتى، إذن، لأن، إذ...وغيرها.

في المثال الآتي:

- زيد مجتهد، إذن سينجح في الامتحان.

نجد حجة وهي "زيد مجتهد" ونتيجة "سينجح في الامتحان"، والرابط بين الحجة والنتيجة هي لفظة "إذن".

وتوجد أنواع مختلفة من الروابط الحجاجية:

1- الروابط المدرجة للحجج، مثل: حتى بل، لكن، مع ذلك، لأن...الخ. والروابط المدرجة للنتائج، مثل: إذن، لهذا، وبالتالي...الخ.

2- الروابط المدرجة حججا قوية، مثل: حتى، بل، لكن، لاسيما...الخ. والروابط المدرجة حججا ضعيفة.

3- روابط التعارض الحجاجي مثل: بل، لكن، مع ذلك...الخ. وروابط التساوق الحجاجي، مثل: حتى، لا سيما...الخ.

أنواع الروابط التي نجدها في الخطاب القرآني الموجه لأهل الكتاب:

توظف هذه الروابط للمحاجة وتلعب دورا كبيرا في توضيح المعنى، ونفاذه إلى ذهن المتلقي، فهي أدوات لغوية دورها يكمن في الربط بين عناصر الحجاج كالمقدمات والنتائج.[3]

ومن الروابط التي نجدها في الخطاب القرآني الموجه لأهل الكتاب:

1- 1:واو الحال: هي رابط حجاجي، تربط بين الحجة والنتيجة، وتعطي للقول الطابع الحجاجي، ومن أمثلتها في القرآن قول الله تعالى:{ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ}.[4]

البنية الحجاجية هنا في شكل:

نتيجة ⟵ رابط حجاجي (واو الحال) ⟵ حجة.

فالسؤال الإنكاري{ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ } هو النتيجة التي ينكرها الله تعالى على بني إسرائيل، والحجة هي { وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ } ، والرابط بينهما هو واو الحال.

ويمكن صياغة معنى الآية في عدّة صيغ:

- أتأمروا الناس بالبر وتنسون أنفسكم، مع أنكم تتلون الكتاب
- بما أنكم تتلون الكتاب فلا تأمروا الناس بالبر وتنسون أنفسكم

وغيرا من الصيغ التي تظهر البعد الحجاجي للآية.

ويقول الحرالي في تفسير هذه الآية مظهرا هذا الحجاج الرباني لأهل الكتاب:" ولما كان فيهم من أشار على من استهداه بالهداية لاتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولم يهدوا أنفسهم لما أرشدوا إليه غيرهم أعلن تعالى عليهم بذلك نظماً لما تقدم من نقض عهدهم ولبسهم وكتمهم بما ظهر من نقص عقولهم في أن يظهر طريق الهدى لغيره ولا يتبعه فأخرجهم بذلك

عن حد العقل الذي هو أدنى أحوال المخاطبين ، **وزاد في تبكيتهم بجملة حالية حاكية تلبسهم بالعلم والحكمة الناهية عما هم عليه**".[5]

انظر إلى قوله في الجملة الأخيرة حيث نجده تنبّه إلى أن هذه الجملة الحالية ما هي إلا حجة أبكتهم وألجمهم الله بها.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمّ يُحَرّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[6]

في هذه الآية يخاطب الله تعالى نبيه ρ والمؤمنين ويؤيّسهم من إيمان بني إسرائيل، ويورد حجة لذلك أنهم (أي بنو اسرائيل) كانوا يسمعون كلامه سبحانه وتعالى ثم يحرفونه. وجاءت الحجة في شكل جملة حالية، رابطها الحجاجي واو الحال.

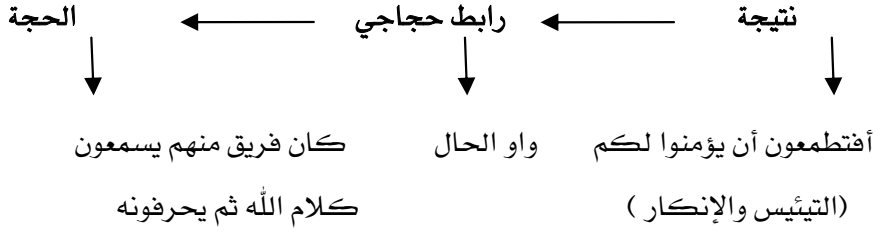

ومثلها قوله تعالى:{ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

تتضمن الآية شقين، الأول منهما: التعجب من عدم توبتهم واستغفاره سبحانه وتعالى بعد الترغيب والترهيب؛ والثاني: وصف الله سبحان بأنه غفور رحيم. والرابط بين المعنيين هو واو الحال التي هي رابط حجاجي، فالمقولة الأولى هي نتيجة- تتضمن دعوتهم إلى التوبة والاستغفار- للحجة التي هي جملة الحال، إذ يمكن صياغة معنى الآية في عدّة جمل كلها تكون ذات بعد حجاجي:

- كيف لا يتوبون إلى الله ويستغفرون مع أنّ الله غفور رحيم.
- كيف لا يتوبون إلى الله ويستغفرون ولاسيما أن الله غفور رحيم
- إذا كان الله غفور رحيم لماذا لا يتوبون إلى الله ويستغفرونه.

والبنية الحجاجية لهذه الآية هي:

1- 2: إذ: وهي اسم زمان في محل نصب مفعول به للفعل المذكور قبلها "اذكروا".

تعتبر إذ رابطا حجاجيا يربط بين الحجة والنتيجة، والحجة تأتي بعد الرابط "إذ"، إذ اسم الزمان هذا ملازم الإضافة للجمل بعده، ونجد هذا الرابط مذكورا في مثل قوله تعالى { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} [7] ، وفي بداية ما بعدها من الآيات إلى قوله تعالى { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ } [8] . فالبنية الحجاجية في مثل هذه الآيات تكون:

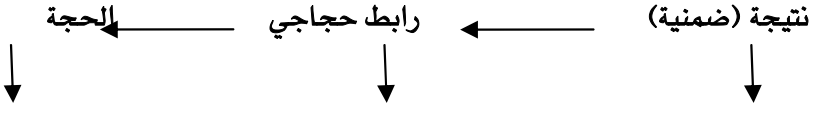

فتعداد النعم على بني إسرائيل هي حجج أوردها الله عليهم حتى يذكروها والغرض من الذكر هنا الامتثال لأوامر الله بطاعته والانتهاء عن معاصيه، وقدّمت هذه النعم بـ"إذ" التي تدل على الزمان أي زمان حصول تلك النعم، وهي - كما نراها هنا - رابطة بين الحجة وبين الغاية المرجو منها أو النتيجة، وهذه النتيجة مذكورة من قبل وهي متضمنة في هذه الآيات.

ونجد الرازي قد أدرك أن تعداد هذه النعم ما هي إلا حجج أوردها الله على بني إسرائيل فقال:" اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالاً بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ليكون أبلغ في التذكير **وأعظم في الحجة** ، فكأنه قال : اذكروا نعمتي واذكروا إذ نجيناكم واذكروا إذ فرقنا بكم البحر وهي إنعامات...". [9]

1- 3: لعلّ: التي هي حرف مشبه بالفعل يدخل على الجمل الاسمية، يمكن أن تكون رابطا حجاجيا يربط بين الحجة والنتيجة. والبنية الحجاجية التي تكون فيه "لعل" الرابط الحجاجي هي:

حجة ← رابط حجاجي ← نتيجة

ومثالها قول الله تعالى: { ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [10]

"لعل" هنا رابطة بين الحجة المتمثلة في قوله تعالى { ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ} وبين النتيجة وهي الشكر على نعمة الله تعالى. أي أن ما بعثتكم بعد موتكم إلا لتشكروا نعمتي عليكم. ونقل القرطبي - في تفسيره لهذه الآية- عن النحاس قوله:"وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبّروا بهذا". [11]

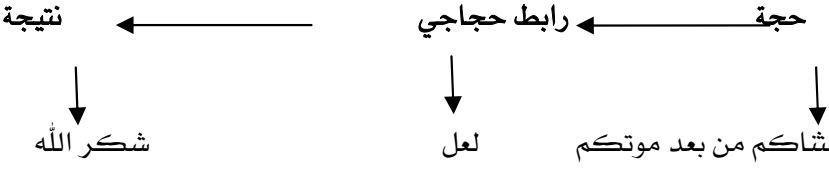

1- 4: بأن: حرف جر الباء المفيد للسببية، بعدها أن الناصبة، و هي رابط حجاجي، لأن ما بعدها سبب وعلة لما قبلها. ومثله قوله تعالى: {... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [12] . فضرب الذلة والمسكنة والغضب من الله على بني إسرائيل ما هو إلا نتيجة لما اقترفوه من الكفر بآيات الله وقتل النبيين. "المشعر بأن كل من اتصف بذلك فهو جدير بأن يثبت له من الحكم مثل ما ثبت للآخر". [13]

فالبنية الحجاجية لهذا القول الحجاجي هي:

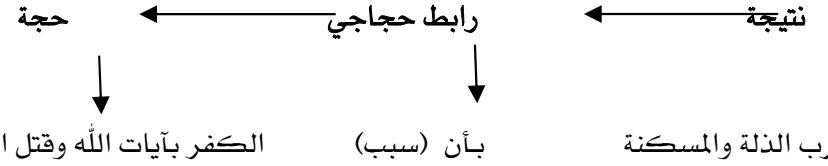

1- 5: إنّ: حرف مشبه بالفعل وهي أداة نصب وتوكيد. تقع رابطا حجاجيا عندما تكون دالة على السببية والتفريع. مثلما نجدها في قوله تعالى: { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}. [14] نترك صاحب تفسير التحرير والتنوير - أولا- يبن لنا تفسير هذه الآية ثم نستخرج البنية الحجاجية منها فيقول:" جملة { إن البقرة تشابه علينا } مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنهم علموا أن إعادتهم السؤال توقع في نفس موسى تساؤلاً عن سبب هذا التكرير في السؤال ، وقولهم { إن البقرة تشابه علينا } اعتذار عن إعادة السؤال، وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا الآن لأن للثالثة في التكرير وقعاً في النفس في التأكيد والسآمة وغير ذلك ولذلك كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة .

وقد جيء بحرف التأكيد في خبر لا يشك موسى في صدقه فتعين أن يكون الإتيان بحرف التأكيد لمجرد الاهتمام **ثم يتوسل بالاهتمام إلى إفادة معنى التفريع والتعليل فتفيد (إن) مفاد فاء التفريع والتسبب**". [15]

نرى من خلال التفسير أن معنى "إنّ" في الآية ليس لمطلق التوكيد، وإنما إفادة التعليل والتسبب مثل "باء" السببية، و"لام" التعليل. فإيراد قوم موسى عليه السلام هذه الجملة إنما هو محاولة منهم لإقناع نبيهم عليه السلام بجدوى سؤالهم، ودفع السأم والضجر عنه - بحسبهم- من كثرة تعنتهم وعدم امتثالهم. فوقعت "إنّ" رابطا بين النتيجة (وهو طلبهم تبيين ماهية البقرة)، وبين الحجة - بزعمهم- (وهي تشابه البقر).

تتضح بهذا البنية الحجاجية للآية هكذا:

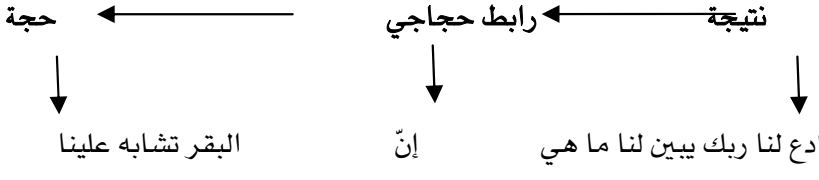

1- 6:لِمَ: كلمة مركبة من حرف الجر (اللام) و(ما) الاستفهامية، من سماتها أن النتيجة معها ضمنية، وكذلك تقديم الحجة الضعيفة ودحضها، وتتضح بنيتها الحجاجية في الشكل الآتي:

الحجة الضعيفة ← دحض الحجة ← الحجة ← النتيجة (ضمنية)

ونجد هذا الرابط ماثلا في قوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}. [16]

يخبر الله سبحانه وتعالى عن بني إسرائيل ردّهم على من طلب منهم الإيمان بما أنزل الله، ثم يُعَقِّب الله عليهم ويبين زيف حجتهم وبطلانها، ويختم الآية بإيراد حجة في شكل سؤال استنكاري، يتضمن عدم إيمانهم بما أنزل عليهم، وكفرهم بآيات الله السابقة والحالية.

والمخطط الآتي يوضح أجزاء القول الحجاجي في هذه الآية:

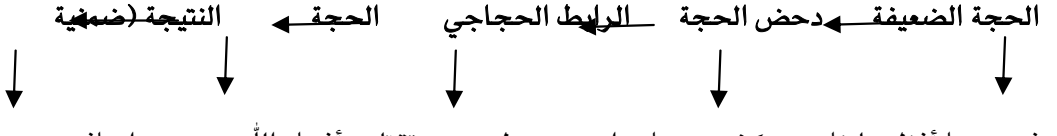

ومثلها قوله تعالى:{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}. [17]

ادعت اليهود أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات، وادعت النصارى أنهم مغفور لهم خطأهم وذنبهم، وأنهم لا يعذبون، واستدلّوا على ذلك بحجة واهية هي أنهم أبناء الله وأحباؤه. فجاء ردّ الله تعالى عليهم مكذّبا لدعواهم، وموردا عليهم حجّة تدلّ على تكذيبهم في شكل سؤال استنكاري "لم يعذبكم بذنوبكم"، يتضمن نتيجة مفادها أنهم ليسوا أبناء لله ولا أحباء له. وجاءت "لم" رابطا حجاجيا.

غير أنّ في هذه الآية لا نجد إبطال الحجة الضعيفة الواهية قبل الرابط كما في الآية السابقة، بل نجدها متضمنة في الحجة الدالة على أنهم ليسوا أبناء لله ولا أحباء له.

وتتمثل البنية الحجاجية للآية في الشكل الآتي:

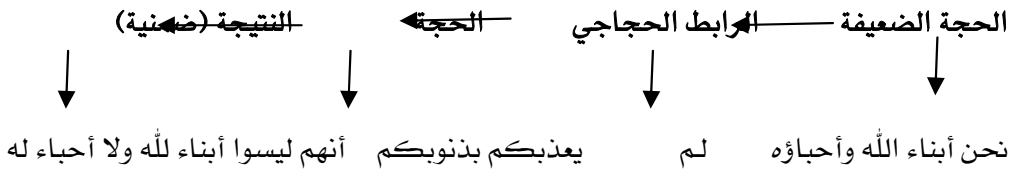

1- 7:الفاء: الواقعة في جواب الشرط. تكون الجملة الشرطية قولا حجاجيا في بعض السياقات والتي يدل عليها المقام، وتكون الفاء الواقعة في جواب الشرط هي الرابط الحجاجي، ومع هذا الرابط تكون النتيجة متضمنة، مثل قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}. [18]

ندع البقاعي يفسر لنا معنى الآية فيقول:" {قل إن كانت} وقدم الجار إشعاراً بالاختصاص فقال : { لكم الدار الآخرة } أي كما زعمتم ، وميزها بقوله : { عند الله } الذي له الكمال كله وبين المراد بقوله { خالصة } ولما ذكر الخلوص تأكيداً للمعنى زاده تأكيداً بقوله { من دون الناس } أي سائرهم لا يشرككم فيها أحد منهم من الخلوص وهو تصفية الشيء مما يمازجه في خلقته مما هو دونه - قاله الحرالي . { فتمنوا الموت } لأن ذلك علَم على صلاح حال العبد مع ربه وعمارة ما بينه وبينه ورجائه للقائه". [19]

إن هذا الخطاب الرباني يحاجج فيه الرب سبحانه وتعالى بني إسرائيل الذين ادعوا أن الآخرة لهم وحدهم، دون سائر الناس، ويقترح عليهم أمرا هو حجة تدل على كذبهم في ادعائهم، وهذه الحجة ارتبط بها حرف "الفاء"، الذي هو الرابط الحجاجي بين الحجة والمتمثلة في قوله تعالى: { فتمنوا الموت }، والنتيجة التي هي غير موجودة على مستوى السلسلة الكلامية، ولكنها متضمنة داخل السياق الذي وردت الآية فيه، ومفادتها تكذيب بني إسرائيل فيما ادعوا. والبنية الحجاجية لهذه الآية هي:

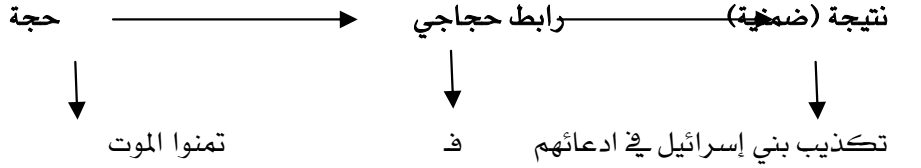

1- 8 بل: تستعمل "بل" في الكلام للإضراب ولها عدة حالات، تحدد بحسب ما يأتي بعدها أمفردا؛ أم جملة، ففي الحالة الأولى لها حالتان:

1- إما أن تسبق بأمر أو إيجاب: مثل: صم يوما بل يومين، جاء علي بل خالد، في هذه الحالة يكون ما قبلها في حكم المسكوت عنه، ولا يحكم له بشيء.

2- وإما أن تسبق بنهي أو نفي: مثل: لا تفطر يوما بل يومين، ما جاء علي بل خالد، في هذه الحالة يكون معناها لتقرير الحكم الأول، وإثبات ضدّه لما بعده.

وإذا ما أتى بعدها جملة فيكون معناها إمّا:

1- **الإبطال**: مثل قول تعالى:{ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}.

2- وإمّا الانتقال من حالة إلى حالة أخرى، مثل قوله تعالى:{ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) }. [20]

وممّا وردت "بل" في الخطاب القرآني الموجه لأهل الكتاب نجد:{ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}. [21]

يقول محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره لهذه الاية:" وأسند النبذ إلى فريق إما باعتبار العصور التي نقضوا فيها العهودكما تؤذن به (كلما) أو احتراساً من شمول الذم للذين آمنوا منهم . وليس المراد أن ذلك الفريق قليل منهم فنبه على أنه أكثرهم بقوله : { بل أكثرهم لا يؤمنون} وهذا من أفانين البلاغة وهو أن يظهر المتكلم أنه يوفي حق خصمه في الجدال فلا ينسب له المذمة إلا بتدرج وتدبر قبل الإبطال". [22]

من التفسير يتضح لنا أنّ معنى "بل" هو لإبطال الحكم السابق لـ"بل" وهو كون الذين نبذوا العهد قليل منهم، هنا بنية حجاجية متكونة من نتيجة وغاية من القول الحجاجي ظاهرة على مستوى الكلام هي إثبات الكفر لبني إسرائيل، والحجة المقدمة هي نبذهم للعهود التي قدّموها، والرابط الحجاجي هو "بل". فتتمثل البنية الحجاجية في شكل:

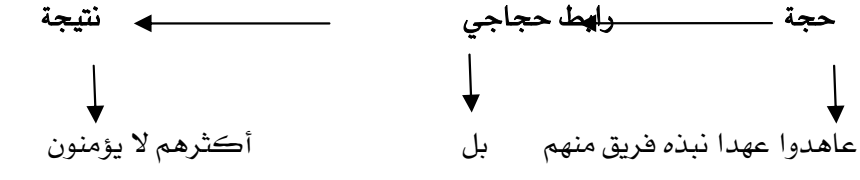

1- 9:لكن: [23] هناك نوعان من "لكن"، الأولى: هي الإبطالية وهي التي يكون ما بعدها مبطلا لحكم ما قبلها، مثل قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا} [24] ، في هذا المثال أبطلت "لكن" الحكم المنسوب إلى سليمان عليه السلام وأثبتته للشياطين، فهذا التعارض (Opposition) إبطالي، وليس حجاجي. بخلاف ما نجده في مثل قوله تعالى:{• إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}. [25]

في هذه الآية تعارض حجاجي، بمعنى أن هناك حجتين: الأولى قبل "لكن" ولأخرى بعدها. فالتي قبلها تخدم نتيجة ضمنية من قبيل "سيشكر الناس ربهم" أو "سيعترفون بالجميل"، وتخدم الحجة الثانية نتيجة مضادة للأولى.وبما أن الحجة الثانية أقوى فإنها ستوجه الكلام بأكمله نحو النتيجة لا- ن.

والرسم التالي يوضح هذه العلاقة الحجاجية:

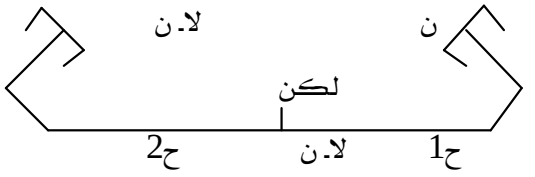

ومثله قوله تعالى:{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}. [26]

افترت اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة- وكذبت في وصفها لله سبحانه وتعالى بأن يده مغلولة كناية على بخله سبحانه- جل في علاه- ، وهي حجة - داحضة- تخدم نتيجة ضمنية من قبيل أنه - سبحانه- لا يبسط الرزق غاية البسط. فجاء الردّ من الله "معبراً بالمبني للمفعول إفادة لتحتم الوقوع وتعليماً لنا كيف ندعوا عليهم" [27]، ثم جاء بالرابط الحجاجي "بل" المفيد للتعارض الحجاجي، وذاكرا أن يديه سبحانه مبسوطتان، وهذه الجملة تخدم النتيجة المذكورة في الجملة بعدها من كونه ينفق كيف يشاء، "ولما كان إنفاقه سبحانه تحقيقاً للاختيار على أحوال متباينة بحيث إنها تفوت الحصر ، أشار إلى التعجيب من ذلك بالتعبير بأداة الاستفهام وإن قالوا : إنها في هذا الموطن شرط ، فقال : { كيف } أي كما { يشاء } أي على أي حالة أراد دائماً من تقتير وبسط وغير ذلك". [28]

فالبنية الحجاجية لهذه الآية هي:

الحجة 1 نتيجة 1 (ضمنية) رابط حجاجي حجة 2 نتيجة 2

نحن أبناء الله وأحباؤه لا يبسط الرزق غاية البسط بل يداه مبسوطتان يشاء ينفق كيف

ونلاحظ أنّ في هذه الآية الحجاجية خلاف الآية المذكورة سابقا حيث نجد فيها "النتيجة 2" ضمنية، أمّا في هذه الآية فالنتيجة مذكورة، وليست ضمنية.

1- 10 بلى: حرف جواب، تختص بالنفي وتفيد إبطاله، [29] وتأتي رابطا حجاجيا إذا جاء ما بعدها يتضمن حجة للنتيجة المعاكسة التي تقع قبلها، فهي بهذا تشبه "لكن" الحجاجية. ومثالها قوله تعالى:{ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [30]

يورد الرازي في تفسيره معنيين لـ"بلى" يتضمنهما السياق فيقول:{اعلم أن في { بلى } وجهين أحدهما : أنه لمجرد نفي ما قبله ، وهو قوله { لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأميين سَبِيلٌ } فقال الله تعالى راداً عليهم { بلى } عليهم سبيل في ذلك وهذا اختيار الزجاج ، قال : وعندي وقف التمام على { بلى } وبعده استئناف. والثاني : أن كلمة { بلى } كلمة تذكر ابتداء لكلام آخر يذكر بعده، وذلك لأن قولهم : ليس علينا فيما نفعل جناح قائم مقام قولهم : نحن أحباء الله تعالى ، فذكر الله تعالى أن أهل الوفاء بالعهد والتقى هم الذين يحبهم الله تعالى لا غيرهم} [31]

من خلال التفسير نجد أن المعنى الثاني هو الذي يكوّن لنا خطابا حجاجيا جاعلا من "بلى" رابطا حجاجيا، ونجد الرازي قد فصل في القول الحجاجي هذا، فقولهم: "ليس علينا في الأميين سبيل" يخدم النتيجة التي مفادها "أننا أحباء الله تعالى"، وردّ الله عليهم أنّ أهل الوفاء

بالعهد هم أحباؤه سبحانه وتعالى، وهي حجّة تخدم نتيجة عكسية للنتيجة التي قبلها، ومفادها أنكم لستم أحباء الله تعالى.

وتكون البنية الحجاجية لهذا الخطاب كالآتي:

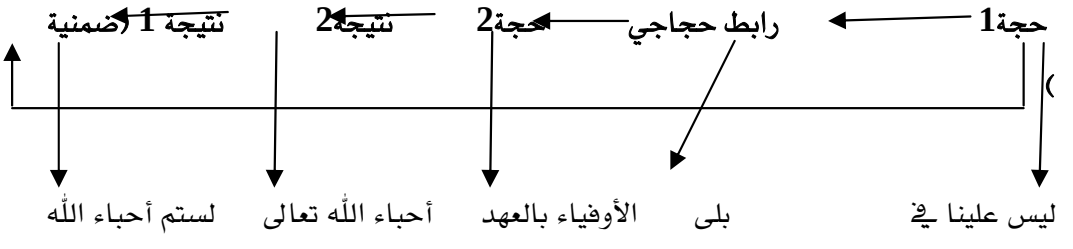

الأميين سبيل والمتقون

1- 11 :حتى: لـ"حتى" أربعة معان:

1- دالة على الغاية، مثل قوله تعالى:{ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}.

2- عاطفة، مثل: "أكرمتهم حتى أنت"

3- دالة على التعليل، مثل: "لأسيرنّ حتى أدخل المدينة".

4- وتكون بمعنى الاستثناء، مثل: "لا يكون الرجل عالما حتى يعمل بعلمه".

و"حتى" بالمعنى الأخير والذي قبله تكون ضمن قول حجاجي، رابطا بين وحدتين دلاليتين، ومثله في القرآن قوله تعالى:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}.[32]

يقول الله تعالى مخاطبا أهل الكتاب أنهم ليسوا على شيء يعتدّ به من الدين الصحيح الموجود في التوراة –بالنسبة لليهود- أو الإنجيل –بالنسبة للنصارى- إلاّ إذا أقمتم التوراة والإنجيل بالعمل والتصديق بما جاء فيهما، وهذه الآية هي حجاج الله لأهل الكتاب الذين يحسبون أنهم على شيء من دينهم، "وقد فنّدت هذه الآية مزاعم اليهود أنّهم على التمسّك بالتّوراة ، وكانوا يزعمون أنّهم على هدى ما تمسّكوا بالتّوراة ولا يتمسّكون بغيرها".[33] وتتضمن الآية معنى أنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل إذن هم ليسوا على شيء. فالبنية الحجاجية لهذه الآية هي:

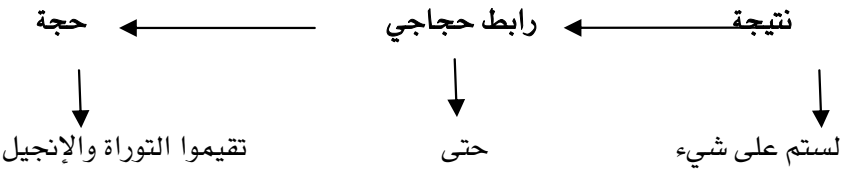

1- 12:اللام : الداخلة على الفعل المضارع، والتي تعمل النصب وتفيد التوكيد، مثل قوله تعالى:{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}. [34]

يخاطب اللّه عز وجل النصارى الذين كفروا بقولهم أنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة، وحذرهم وأنذرهم أن يتوقفوا عن هذا الكلام، وإلاّ سوف يعذبهم بالنار و بئس المصير. وهذا التحذير جاء في شكل قول حجاجي، النتيجة هي مسهم بالعذاب، والحجة هي عدم انتهائهم عن قولهم "إنّ اللّه ثالث ثلاثة"، والرابط بين الحجة والنتيجة هو حرف "اللام". ويمكن صياغة معنى الآية في قولنا:

إذا لم ينتهوا عمّا يقولون إذن سيمسهم عذاب أليم.

سيمسهم عذاب أليم إذا لم ينتهوا عمّا يقولون.

وتتمثل البنية الحجاجية لهذه الآية الكريمة في:

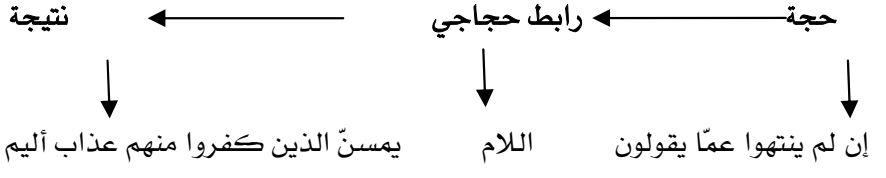

وأخير نقول أنّه يتحتّم علينا إعادة النظر في التحليل أو التفسير للقرآن الكريم، حتى نستخرج بعضا من مكنوناته التي لم نكن لننتبه لها لولا هذه الآليات الحديثة التي نجدها ضمن الدراسات الجديدة التي تُعنى بتحليل الخطاب. فالروابط الحجاجية نوع واحد من أنواع الأساليب الحجاجية التي تتمتع بهاالنصوص والخطابات، وقد رأينا –باعتمادنا على إظهار هذه الروابط إضافة إلى الحجة والنتيجة التي تربط بينهما- كيف تتجلّى حجاجية بعض النصوص القرآنية، والغرض الذي ترمي إليه، والحجة المستعملة في ذلك. وهذا لاشك أنّه إثراء وتجديد في الآن نفسه للكمّ الهائل من التفاسير التي يتميز بها كل تفسير عن آخر بخصوصيات لا نجدها في التفسير الآخر.

الهوامش:

[1]- آن روبول وشاك موشلال، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر:سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني،مر:لطيف زيتوني، ط1، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت- لبنان،2003، ص:169.

[2]- أبو بكر العزاوي: الحجاج والمعنى الحجاجي، (مقال) ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، لـ حمو النقاري، مطبعة النجاح الجديدة- دار البيضاء، الطبعة الأولى 2006، ص:64.

[3]- آمنة بلعلى : الإقناع، المنهج الأمثل للتواصل والحوار، نماذج من القرآن والحديث (مجلة التراث العربي)، السنة 23،العدد 89، مارس 2003، ص:222.

[4]- سورة البقرة، الآية:44.

[5]- برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة ،1/336- 337.

[6]- سورة البقرة، الآية:75.

[7]- سورة البقرة، الآية:49.

[8]- سورة البقرة، الآية:60.

[9]- فخر الدين الرازي: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1401هـ- 1981، 3/71.

[10]- سورة البقرة الآية: 56.

[11]- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي:الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1428/2006، 2/115.

[12]- سورة البقرة، الآية:61.

[13] - محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 1/527.

[14]- سورة البقرة، الآية: 70.

[15]- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 1/554.

[16]- سورة البقرة، ألآية:91.

[17]- سورة المائدة، الآية: 18.

[18]- سورة البقرة، الآية:94.

[19]- البقاعي: نظم الدرر، 2/58.

[20]- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء- المغرب، الطبعة الأولى:2006، ص:60- 61.

[21]- سورة البقرة، الآية:100.

[22]- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 1/625.

[23]- انظر اللغة والحجاج لأبو بكر العزاوي، من:57 إلى 59.

[24]- سورة البقرة، الآية:102.

[25]- سورة غافر، الآية:61.

[26]- سورة المائدة، الآية:64.

[27]- البقاعي: نظم الدرر، 219/6.

[28]- المرجع السابق: 220/6.

[29]- ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب، السلسلة التراثية، لبنان- الكويت، الطبعة الأولى:1423- 2002، ص:191/2.

[30]- سورة آل عمران، الآية:75- 76.

[31]- الرازي: التفسير الكبير، 123/8.

[32]- سورة المائدة، الآية:68.

[33]- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 266/6.

[34]- سورة المائدة، الآية:73.